

علاقة الطفل بوالديه

ملخصة عن أوبرندورف^(١)

حين يولد الطفل تتغير العلاقة بين الزوجين . فيلاده يخلق موقفاً سيكولوجياً جديداً : فهو يوثق بين الزوجين أواصر الزواج ، ولكنه يحرم كلا منهما من بعض ما يتلقاه من حب الآخر ورعايته . ويتوقف تحمل هذا الحرمان على ما يتميز به الزوجان من استعداد انفعالي للأبوة والأمومة . ففي العادة يكون الزوجان متأهبين للتضحية لطفلهما بكثير مما ينالان من حب . والأمر يختلف في الحالات المرضية : فحين يكون الزوج ما يزال يسلك من زوجه لاشعوريا مسلك الإبن ، والزوجة تتمسك لاشعورياً بأن تبقى ابنة له ، يؤدي هذا الحرمان من حب الشريك إلى إفساد علاقة الطفل بوالديه . والمثال التالي تحليل لحالة مرضية أفسد فيها نقص نضوج الأم الانفعالي علاقتها بزوجها وابنها .

أما المريضة ففي السابعة والعشرين ، تحس بخفقان في القلب وباحتناق . روت أن طفلها ، وعمره ثلاثة سنين ، لا يني يقرصها ويعضها كلما قبلها زوجها أمامه أو صرخ بها . وما إن برزت أسنانه في منتصف السنة الثانية حتى كان يعضها بشراسة في ساعديها وساقها كلما أظهر زوجها بها اهتماماً . وكان هذا يحنق الوالد على ولده .

وفي حياة المريضة ما يفسر موقف الطفل الشاذ : فقد كانت هي الابنة المفضلة لوالده طاغية يقسو على زوجه وأفراد أسرته ، فكانت قادرة على أن تنال منه كل ما تريد . تزوجت في التاسعة عشرة شاباً كيمسا ضخمة الجثة ولعت به إلى يوم زفافها . وإذا ذلك انقلب حبها مقتاً . فظنت أن زوجها تبدل أثناء الليل من شخص كريم

يشير الإعجاب إلى خشن فظ تخجل من أن تبدو معه أمام الناس . وفي رحلة شهر العسل إلى فلوريدا ، أحست باختناق وغيثان شخصاً «بسعال العروس» . وهبطت حالها النفسية على الأثر ، فاتفقت وزوجها على الطلاق بعد سنة من زواجهما . وبعد ستة أشهر تزوجت رجلاً هادئ المزاج موفق العيش يكبرها بقليل . فعاودها اضطراب تنفسها عقب حفل زواجها الثانى مباشرة ، مع أنها لم تشك منه إبان طلاقها وزواجها هذا .

ولد الطفل المذكور بعد سنة زواجها على التقريب ، وكانت المريضة تعاني أثناء الحمل آلام الغثيان والاختناق بلا انقطاع . وما أن ولد الطفل حتى لزمّت الفراش سنتين ، دون أن تبدو عليها أعراض مرض جسمى . ثم تماثلت فترة وجيزة ، تلاها ظهور أعراض جسمية وعقلية على صورة أفكار وسواسية . فكان من البين أن المريضة ما تزال تحب زوجها الأول حباً جماً ، وتحقق ، لأسباب لا شعورية ، على رقة زوجها الثانى . كذلك كان من البين أنها استعاضت عن فشلها فى زواجها الثانى بارتباطها بطفلها على نحو شاذ ، حين بلغ عامه الثانى وبات قادراً على مبادلتها الحب . ومنذ ذاك برحت الفراش .

ويمكن تفسير هجوم الطفل على أمه كلما صرخ بها زوجها : فقد نال الطفل من أمه حباً مفرطاً ؛ فهو لا يتحمل منافسة آخر . ولقد ارتبط فى ذهنه أن ارتفاع الصوت وغضب اللهجة يدلان على قرب العقوبة . كذلك أدرك أن أمه مذنبه مادامت تبيح للغير أن يصرخ بها . فهى من ثمت فى موقف يجيز العقوبة ويبررها . لذا يتحين الفرصة فيقتص منها لأنها لم تقصر حبها عليه وحده ؛ وهو يريد أن يثبت ، بعقابه لها ، من أنها ستؤثره وحده بحبها فى كل حين .

ويواصل الطفل سوء سلوكه فى مثل هذا الموقف لأن أحد الوالدين يظاھره ويحته . وفى الحالة التى نحلها ، كانت المريضة تشجع هجمات الطفل ، لأنها تذكرها بموقف زوجها الأول منها : فقد ردّتها بشغف وهى تضحك . إذ لو لم يكن سلوك الطفل ، رغم

قسوته ، يلد الأم ، لما سمحت باستمراره . والواقع أنها دعت الأب ، دون أن تشعر ، إلى القسوة عليها اقتداء بطفله . إن كان يطمع في نيل نصيب ابنه من حبها . وفوق هذا ، كان حبها لابنها الذي « لا يقاسمها فيه أحد » ، يحقق لها لا شعوريا رغبتها في أن تكون رجلاً مسيطراً كأبيها . لهذا كان حبها لابنها حباً لنفسها بالأحرى . ولكنها لما كانت تعد نفسها مذنبه لأنها تمثل الرجل المعتدى والزوجة الكارهة ، كانت شراسة الطفل ترضى إحساسها اللاشعوري بالإثم . إذ لما كانت وثيقة التعلق بأبيها فقد قصرت عن النهوض بدورها كزوجة في زيجتها على السواء ، وجاء الطفل فأكد هذا القصور .

ومن ثم نرى أن هذه العلاقة الشاذة بين الأم وابنها وقد بدت بصورة إسراف أناني في التغاضي عن الطفل ، تقوم في جوهرها على عجز الأم عن التوافق مع زوجها توافقاً ناضجاً . وهذا العجز يرتد بدوره إلى استمرار تعلقها بأبيها تعلقاً مسرفاً ، أى يرجع إلى نقص نضوجها الانفعالي .

فلئن كان مولد الطفل يخلق موقفاً سيكولوجياً جديداً ، فإن تطور الطفل يغير هذا الموقف . فلنتأثر إذن هذا التطور .

نحن ينمو ذكاء الطفل ، يتمكن من الربط بين رغبته في موضوع ما وبين هذا الموضوع ، بين رغبته في الأكل وبين الطعام مثلاً . فيستطيع أن يظهر إرادته بما يأتي من أفعال ، كالمقاومة والقبض باليد وما إلى ذلك . فيخلق الطفل بغضبه وعناده أولى المشاكل التربوية : إذ يصعب على الوالدين أن يتوسطا الشدة واللين ، لأن الأطفال يتفاوتون في حاجتهم إلى الحب واحتجاجهم على تقييد نشاطهم . ولكن لا ريب في أن الوالدين الذين حرما الحب في طفولتهما يميلان إلى الإسراف في الشدة واللين . ولا ريب في أن الأم التي لم تستقل عن والديها انفعالياً ، تميل إلى توثيق علاقة أطفالها بها ، لأن قربهم يزيد ثقتها بنفسها ، بعد أن زعزعها ضعفها كزوجة ، ويعوض أحياناً عن ميل عدائى يتجه إلى أطفالها أنفسهم .

ويفتقر الطفل إلى قدر كبير من حب والديه ، حتى تكتمل سعادته ونموه الانفعالي ولكن يستحيل تعيين القدر الذي يفيدته . ومع هذا ، فعالباً ما يحدسه الوالدان على أساس شعورهما بالرضى ، دون التفات إلى استجابات الطفل . فالطفل الذي ينضاف إلى الأسرة دون أن يكون مرغوباً فيه ، يغدو ضحية إهمال الوالدين : فيلبس ملابس إخوته ، ويلعب بلعبهم المحطمة ، وينال من العقوبة فوق ما يستحق . والطفل يستبين هذا التفاوت بينه وبين إخوته ، فيدرك أنه فقد حب والديه . ويترك هذا الفقد آثاره في سلوكه طوال حياته ؛ فقد يسخط على العالم ، وقد يصعب عليه أن يوفق بين حاجاته الناضجة ومقتضيات المجتمع ، وقد يواصل لاشعورياً السلوك الطفلي علّه يستعيد الحب الذي فقد . ولكن عادة ما يتسم سلوك الوالدين من ابنهما البكر بالتساهل المسرف ، لاسيما إذا ظل بلا شريك . بيد أن الإفراط في التسوية والتساهل يشوّه فكرة الطفل عن مركزه الحق في الأسرة والمجتمع . فاذا امتنع توسطهما ، فإن عدم المبالاة أقل إفضاء إلى الشذوذ الانفعالي المرضى ، من التدليل الشاذ والبغض السافر . إذ لا ريب في أن الوالدين لا يشعران نحو طفلين من أطفالهما بنفس المشاعر . وقد ينكر الوالدان هذا التفاوت في توزيع حبهما . وقد يكون تحيزهما اللاشعوري هو ما يدفعهما إلى هذا الإنكار : فقد يكشفان عن ميلهما إلى المحابة بطرق أخفى مما يظنان ودون انتباه على الإطلاق .

وكما يخلق ميلاد الإبن البكر موقفاً سيكولوجياً جديداً ، كذلك يخلق كل طفل يأتي بعده مواقف جديدة . ذلك لأن الإخوة يؤثر بعضهم في بعضهم تأثيراً انفعالياً يوجد في حياتهم وحياة الأسرة مواقف تتغير باستمرار . فحين ينضم إلى الأسرة طفل جديد ، أياما كان جنسه ، يظهر في الأسرة وسط جديد . وهذا الوسط يبدو بوضوح في الحالات المرضية : فقد يركز أحد الإخوة اهتمامه حول أخ آخر . فتملك عليه هذه العلاقة حياته بأسرها . وقد يغار الأخ الأصغر من أخيه الأكبر . فتعين هذه الغيرة مدار تفكيره ونشاطه . وقد يتحد أخوان ضعيفان للثأر من أخ أقوى . وقد تحدث

بين أخ وأخت صورة صبيانية للزواج . فيتيسر لهما أن يستبعدا طرفاً ثالثاً فإن الأحداث الجنسية التي تجرى بين الأخوة في طفولتهم ؛ تؤثر بعمق في تحديد ارتباطاتهم ومواقفهم فيما بعد . وهذا يؤدي بنا إلى تناول سلوك الطفل الجنسي من وجهة نظر علاقة الطفل بوالديه .

فالطفل يهتم بالموضوعات الجنسية قبل أن يتنبه الوالدان إلى اهتمامه . فهو يميل إلى استقاء معارفه الجنسية ممن يقاربونه سنّاً . فيتلقى عن الميلاد والنسل تفسيرات تشبع فضوله ، رغم بعدها عن الدقة والطفل يصدقها . لأنها تلوح له أصوب من تفسيرات الكبار . وهي تلوح له كذلك لأنه يجد في تجربته السابقة دافعاً قوياً إلى الرغبة في صدق الكبار . وقد يحتكم الطفل إلى والديه فيما يتعلق بالموضوعات الجنسية . وقد يرفض حكمهما لأنه لا يطابق تصوراتهما السابقة .

أما متى يشترك الوالدان في تربية أبنائهما الجنسية ، فهذا ما يعينه الطفل حين يلمح إلى الموضوعات الجنسية تلميحاً . أو حين يأتي فعلاً جنسياً سافراً . ويحسن ترك الموضوع دون إثارة حتى ذلك الحين . وإلى أن يظهر الطفل بالمسائل الجنسية اهتماماً تلقائياً ، لا يكون متأهباً لفهم ما يليق إليه من معلومات جنسية قد تصدمه .

ولا بد أن يتبين الأطفال ما بين عادات الأب والأم والإخوة والأخوات من اختلاف . وقد يثير الجنس مشكلة تربوية أخرى حين يبلغ الطفل عامه الثاني أو الثالث . فقد يعتمد الوالدان على تعزية الطفلة بأنها ستملك عضواً كاخوتها . وإن اختلفا عن إخوتها ضئيل الأهمية ومن الخطأ أن يحاول الوالدين تغطية الفروق الجنسية التشريرية وقد تبينها الأطفال .

ولا بد أيضاً أن يشترك الأطفال في أحداث جنسية تعرض من حين إلى حين . وقد يكون من الأفضل لنموهم مواجهتها . فإن جذبت المواقف الجنسية انتباه الطفل ، وجب أن يواجهها الأطفال بوصفها أحداثاً طبيعية ، دون أن يضطرب لها الوالدان . ولا ينبغي أن يعتبر الوالدان الجنس طبيعياً إلى حد التعري أمام أطفالهم ، كما يدعوا بعض رجال التربية . فقد يثير التعري في الطفل اهتماماً جنسياً سابقاً لأوانه ؛ فضلاً عن أنه يناقض عادات المنزل فيبدو للطفل شاذاً غير طبيعي .

فلئن كان للتربية الجنسية أن تبدأ في الطفولة ، فشرطها الأول أن يكون للطفل والدان عاقلان . ونحن نشير هنا ، دون تشاؤم ما ، إلى دور حقيقى يقع فيه والدان : فالطفل يعتمد على والديه فى تربيته الجنسية . ولوالديه أفكار عن الجنس . هذه الأفكار ترجع إلى عهد الطفولة . وهى لم تتغير ، دون أن يشعر والدان بهذا . فحين يبدأ تربية الطفل الجنسية ، يرجعان إلى أفكارهما الطفلية عن الجنس . فيقع والدان تحت تأثير رغبة لا شعورية فى الإقتصاص لظلم لقياه فى طفولتهما ، فيفرضان على أبنائهما نفس النواهي الجنسية التى طالما بغضاها أطفالاً . فهما يثاران من أطفالهما . وقد تتبدل صورة العقوبة ، وتظل طريقه توقيعها (نبرة الصوت والإشارة والتعبير الوجهى) مماثلة للطريقة التى عوقبا بها وهما طفلان . وهذا يحدث دون أن يشعر والوالدان بمسلكهما التحكمى .

وهذا هو الدور الذى يقع فيه والوالدان حين يتشبثان بسلوكهما الطفلى . ولكنه ليس مطلقاً لا يحتمل تعديلاً : فالزوجان ألفة جديدة . وفى هذا ما يكفى لخلق بيئة منزلية جديدة وحيلاً مختلفاً عن الجيل السابق . إذ هناك بعض أحوال تؤثر فى تغيير موقف والوالدين من أطفالهما . فتقافة والوالدين تؤثر فى تناولهما مشاكل أولادهما . وهذا التأثير عقلى بالضرورة يتمثل فى تقديرهما مشاكل أولادهما على أساس عقلى . وبهذا يتاح لهما أن يتخيرتا المدرسة التى تعنى بالطفل وتثقيفه . فقد يدرك الوالد المحافظ أن المدرسة الصارمة لا تلائم بالضرورة حاجات الطفل . وقد يقتنع الوالد المتحرر أن ما يلائم الطفل هو مدرسة لا تؤكد فرديته بحيث توازن الاختلال فى نظام المنزل . يتبين مما تقدم أن نمو الطفل الانفعالى يتأثر بعلاقته بوالديه تأثيراً قوياً متصلاً . ولكن يجب قطع الروابط الانفعالية التى تربط الطفل بوالديه ، حتى لا يقف نمو الطفل الانفعالى . ويجب أيضاً قطعها بالتدريج ، وذلك بأن يشجع والوالدين اعتماد الطفل على نفسه ، وأن يفصلاه عنهما فى سن ملائمة . فإن ذلك كله يؤثر فى الطفل ووالديه تأثيراً حسناً .

ولقد رأينا أن الحب الأبوى ظاهرة معقدة تدخلها دوافع متميزة عدة . والتحليل النفسى يكشف فيه عناصر جنسية لا تنكر . وهى تظهر فى المواقف العائلية الشاذة على وجه التخصيص : يكشف عنها زواج أيم بامرأة تصغره بثلاثين أو أربعين عاماً ، وتظهر سافرة فى زنا الأب بابنته . هذا ما يجعلنا نفهم مسلك الآباء الأنانيين الذين فشلوا فى زواجهم أو فقدوا شريكهم بالطلاق أو بالموت . فهم يبرعون فى توثيق الروابط الانفعالية الطفلية بينهم وبين أطفالهم . وبذلك يمنعونهم من الاستقلال عنهم وبذلك أيضاً يخلقون العلاقات العائلية المَرْضِيَّة . أما الأطفال الذين لم يتح لهم التخلص من ارتباطهم بآبائهم ، فيسخطون عليهم ويبغضونهم . وفى هذا الدليل على أن تأخر تطوُّرهم الانفعالى لم يرضهم قط . ويختلف موقف الأطفال عن آباءهم حين تنحل بينهم الروابط النفسية والجسمية انحلالاً طبيعياً موقفاً . فإذ ذاك قد تقوم بينهم صداقة أساسها النضوج الانفعالى .

ولا يمكن تقدير أهمية هذا التحول فى نمو شخصية الطفل . ذلك لأن الوالد الذى يرتبط بطفله ارتباطاً مرضياً ، والعكس بالعكس ، لن يبيع لنفسه توجيه بعض حبه لنظرائه . ويتضح هذا فى موقف الطفل حين يحتك بأطفال الجنس المقابل : فهو يرتد على نفسه المرة تلو المرة ، عاجزاً عن حب غيره . لذلك فهو معرض لأن تنمو شخصيته بحيث لا ترضى إلا بنفسها وبكل ما يمر من خلالها . والطفل لا يقلل ركونه إلى والديه . لأن هذا الركون يلذه . فإن فقدما ، وجد نفسه قد جاوز سن الطفولة . وما زال يتشبث بسلوكه الطفلى . لذا يعجز عن التوافق مع المجتمع ، يعجز عن التوافق مع من تخطى مراحل الاعتماد على الوالدين وكل نضوجه الانفعالى .

وجملة القول : أن اكتمال شخصية الطفل يتوقف على عدة عوامل . هى : (١) نضوج الوالدين نضوجاً انفعالياً (٢) توفيقهما فى توسط اللين والقسوة على الطفل (٣) إدراكهما أن سلوك الطفل الاجتماعى وموقفه منهما لا ينفصلان عن مشاكله الجنسية (٤) تشجيعهما فى الطفل استقلاله الانفعالى .